﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرَ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا فَٱسۡتَمۡتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمۡ فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِخَلَٰقِكُمۡ كَمَا ٱسۡتَمۡتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُم بِخَلَٰقِهِمۡ وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٦٩﴾ [التَّوبة: 69]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

مناسبة الوعيد بعذاب المنافقين، وكونهم كالكفّار السّابقين حالا ومصيرا

لَمَّا بيَّن ﷻ في الآيات السَّابقة العقاب الشَّديد الّذي يستقبلُ الكافرين، ومنهم المنافقون؛ لأَنَّهم كفَّارٌ أَخِسَّاءُ حرصوا على طلب الدُّنيا وأَعرضوا عن الآخرة، بيَّن في هذه الآية حصول المشابهة بين الفريقين في طلب الدُّنيا والإعراض عن الآخرة وتكذيب الأنبياء والمكر والخديعة بهم، وفي العقاب الأُخرويِّ بحُبُوطِ أعمالِهم وخسرانِها.

ومن المناسبة أَنَّه لَمَّا كانَ حالُ المنافقين - فيما تقدَّم - الإقبالَ على العاجلةِ؛ لكونِها حاصلة، والإعراضَ عنِ الآخرة؛ لأَنَّها غائبةٌ، مشابهًا لحالِ مَنْ كانَ قبلَهم منَ الأُمَمِ الخاليةِ والقرونِ الماضية، بيَّن لهم ذلكَ في هذه الآية، وختمَ ببيانِ سوءِ أحوالِهم وقُبْحِ مآلهم بتلاشي أعمالِهم، فقال: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ الآية، مُلتفتًا إلى أسلوبِ الخطاب؛ لأَنَّه أوقعُ في بابِ العتاب، وأَقعدُ في اسْتجلابِ المصالحِ للمتاب[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَشَدَّ﴾: الشَّدُّ: العَقدُ القويُّ، يُقالُ: شدَدْتُ الشَّيء: قوَّيتُ عَقْدَه، قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡۖ﴾ [الإنسان: 28]، وقالَ سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ﴾ [محمَّد ﷺ: 4]. والشِّدَّةُ تُستعملُ في

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 8/522.

العُقَد، وفي البَدَن، وفي قُوَى النَّفس، وفي العذاب، قالَ تعالى: ﴿وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فاطر: 44]. وأَشدُّ: صيغةُ مبالغة[1]، وهي هنا كذلك في قولِه تعالى: ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً﴾، أي: أولئكَ الكفَّارُ من قبلُ كانوا أشدَّ قوَّةً من هؤلاءِ المنافقينَ والكفَّارِ المعاصرينَ للنَّبيِّ ﷺ[2].

2) ﴿فَٱسْتَمْتَعُواْ﴾: المُتوعُ: الامْتدادُ والارْتفاع، يُقالُ: مَتَعَ النَّهارُ ومَتَعَ النَّبات: إذا ارتفعَ في أوَّلِ النَّهار. والمتاعُ: انْتفاعٌ ممتدُّ الوقت، يُقالُ: مَتَّعهُ اللّهُ بكذا، وأَمْتَعَه، وتمتَّعَ به، قالَ تعالى: ﴿وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾ [يونس: 98]. وكلُّ موضعٍ ذُكرَ فيه (تمتَّعوا) في الدُّنيا فعلَى طريقِ التَّهديد، وذلكَ لما فيه من معنى التَّوسُّع، قالَ تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾ [التَّوبة: 38]. واسْتمتَعَ: طلبَ التَّمتُّع[3]، كما هنا في قولِه تعالى: ﴿فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ﴾، أي: تمتَّعوا بنصيبِهم وملذَّاتِ الدُّنيا الَّذي قدَّره اللّهُ لهم، ورضوا بها عوضًا من الآخرة[4].

3) ﴿بِخَلَٰقِهِمْ﴾: الخَلاقُ: "النَّصيب الَّذي هو عند صاحبه وافرُ الحظِّ"[5]. أو ما اكتسبه الإنسان من الفضيلة بِخُلُقِه، ويُطْلَقُ على النَّصيبِ؛ لأنَّه قد قُدِّرَ لكلِّ أحدٍ نصيبُه، ومنه قولُه تعالى: ﴿لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [آل عمران: 77][6]. ومنه قولُه تعالى هنا: ﴿فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ﴾[7].

4) ﴿وَخُضْتُمْ﴾: الخَوْضُ: هو الشُّروعُ في الماءِ والمرورُ فيه، ويُستعارُ في الأمور، وأكثرُ ما وردَ في القرآنِ وردَ فيما يُذَمُّ الشُّروعُ فيه[8]، كما في قولِه تعالى: ﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ﴾ أي: شَرعتُم في المنكراتِ والضَّلالاتِ كما شَرعوا فيها من قبل، وخُضْتُم مِثلَهم في الكذبِ والباطل[9].

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 447، وابن منظور، اللّسان: (شدد).
(2) الشَّوكانيُّ، فتح القدير: 2/540.
(3) الرّاغب، المفردات، ص: 757، وابن منظور، اللّسان: (متع).
(4) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 1/263، وابن جرير، جامع البيان: 10/175.
(5) الزَّجَّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/460.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: 2/214، والرَّازيّ، مختار الصِّحاح: (خلق).
(7) تقدَّمَ بيانه في المفردة السَّابقة: (فاستمتعوا).
(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: 2/229، والرّاغب، المفردات، ص: 302.
(9) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/335، والشَّوكانيُّ، فتح القدير: 2/540.

5) ﴿حَبِطَتْ﴾: جذرُه (حبط)، وهو أصلٌ واحدٌ يدُلُّ على بُطلانٍ أوْ ألم، وأصل الحَبَطِ من الحَبَطْ: أن تُكثِر الدَّابَّة أكلًا حتى ينتفخ بطنها؛ فتموت، يُقالُ: أَحْبَطَ اللّٰهُ عملَ الكافرِ، أي: أَبْطَلَه، قالَ اللّٰهُ تعالى: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ [المائدة: 54][1]. وحَبْطُ العملِ على أَضْرُب؛ الأوَّل: أن تكون الأعمال دنيويَّةً فلا تُغْني في القيامة غناءً كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: 23].

الثَّاني: أن تكون أعمالًا أُخرويَّةً لكن لم يَقْصدْ بها صاحبها وجه اللّٰه تعالى، كما في الحديث في شأن الَّذي يقاتل والمُتَصَدِّق وقارئ القرآن، وكلُّ ذلك لغير وجه اللّٰه فيُؤْمَر بهم إلى النَّار.

الثَّالث: أن تكون أعمالًا صالحةً ولكن بإزائها سيئات تزيد عليها، وذلك هو المُشار إليه بِخِفَّةِ الميزان[2].

ومعنى قولِه تعالى - هنا - : ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: بَطَلَتْ أعمالُهم بعدَ التَّعبِ فيها، فأصابَهمُ المَقتُ من المؤمنين في الدُّنيا، وفسدتْ أعمالُهم عليهم، وفي الآخرةِ بأن لا تنفعَهم؛ بل يقعُ عليهم جزاؤها[3].

6) ﴿ٱلْخَٰسِرُونَ﴾: جذرُه (خسر)، وهو أصلٌ واحدٌ يدلُّ على النَّقص، أي: انتقاص رأس المال، ويُنْسَبُ ذلك إلى الإنسان، ويُقال خَسِرَ فلانٌ، وإلى الفعل فيُقال: خَسِرَتْ تجارتُه، قال تعالى: ﴿تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾﴾ [النّازعات: 12]، ويُسْتَعْمَلُ ذلك في المقتنيات الخارجة كالمال والجاه في الدُّنيا، وهو الأكثر، وفي المقتنيات النفسيَّة كالصِّحَّةِ والسَّلامة والعقل والإيمان والثَّواب، وهو الذي جعله اللّٰه تعالى الخُسرانَ المبينَ، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾ [الزُّمر: 15][4]. و﴿ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أي: المتمكِّنونَ في الخُسران الكاملونَ به في الدُّنيا والآخرة[5].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: 2/129، والرّاغب، المفردات، ص: 216.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: 2/129، والرّاغب، المفردات، ص: 216.
(3) الرّاغب، المفردات: (حبط).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: 2/182، والرّاغب، المفردات: (خسر).
(5) الشَّوكانيُّ، فتح القدير: 2/540.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

حالُ المنافقينَ كحالِ مَنْ سبقوهم في الكُفْرِ والنِّفاقِ، وسوء العاقبة

يقولُ تعالى واصفًا حالَ المنافقين: إنَّ حالَكم - أيُّها المنافقون- كحالِ أمثالِكم ممَّن سبقوكم إلى النِّفاقِ والكفر، وقد كانوا أشدَّ بأسًا منكم وأقْوى عَريكةً، وأكثرَ أموالًا وأولادًا، اسْتمتَعوا بنصيبِهمُ الَّذي قدَّره اللهُ لهم من حظوظِ الدُّنيا ومُتَعِها، وأعْرضوا عن ذكرِ اللهِ وتَقْواه، وقابَلوا أنبياءَهم بالاسْتخفاف، وصدُّوا عن سبيل اللهِ. وقدِ اسْتمتعْتُم بما قُدِّرَ لكم من ملاذِّ الدُّنيا، كما اسْتمتَعوا، وخُضْتُم فيما خاضوا من الفجورِ والمنكَرات. وكما بَطَلتْ أعمالُهم فلم تنفعْهم شيئًا في الدُّنيا والآخرة، فأنتُم كذلكَ مثلُهم في سوءِ الحالِ والمآل[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ فصلِ الآيةِ عمَّا قبلَها:

مشابهة المنافقين بالكفرة السّابقين، في الحاضر والمصير

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ عمَّا سبق؛ لأنَّه من بقيَّةِ القولِ المأمورِ الذي يُبلِّغُه النَّبيُّ ﷺ إيَّاهم من قولِه تعالى: ﴿قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ٦٥﴾ [التَّوبة: 65]، فيكونُ ما بينهما اعتراضًا بقولِه تعالى: ﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ﴾ [التَّوبة: 67].

دلالة الخطاب على تشبيه الحال في المآل:

ذِكْرُ الكُفَّار والمنافقين مع فَنَائهم، يُومئ إلى أنَّهم جميعا إلى فَناء

قوله تعالى: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ الخطابُ للكفَّار والمنافقين، وذِكْرهم مع فَنَائهم، يُومئ إلى أنَّهم سيكونون مِثْلهم في الفَنَاء، وأنَّ الحياة الدُّنيا الّتي آثروا مُتَعَها فانية، ويكون الكلامُ على مُقتضَى الظَّاهرِ بدونِ التفات، والكلامُ مَسوقٌ لتشبيهِ حالِهم في مصيرِهم إلى النَّار[2].

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/335، والسَّعديُّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 294.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/257.

نكتةُ الالتفاتِ في الضَّمائرِ على أحدِ الوجوهِ:

إبراز القصدِ إلى الموعظةِ، والتّنبيه إلى عدمِ الاغترارِ بالإمهالِ

الخطابُ في الآيةِ التفاتٌ عن ضمائرِ الغَيبَةِ الرَّاجعةِ إلى المنافقين، إلى خطابِهم لقصدِ التَّفريعِ والتَّشديدِ والتَّهديدِ بالموعظة، والتَّذكير عنِ الغُرورِ بما هُم فيه من نعمةِ الإمهالِ بأنَّ آخرَ ذلكَ حَبْطُ الأعمالِ في الدُّنيا والآخرة، وأنْ يحقَّ عليهمُ الخُسران[1].

بلاغةُ الموقعِ الإعرابيِّ لكاف التَّشبيه:

التَّشبيه بذميم الصِّفات مدعاةٌ للذَّمِّ والتّقريع

كافُ التَّشبيهِ في قولِه تعالى: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾، في موضعِ الخبرِ عن مبتدأٍ محذوفٍ دلَّ عليه ضميرُ الخطاب، تقديرُه: أنتم كالَّذين من قبلِكم، أو الكافُ في موضعِ نَصْبٍ بفعلٍ مقدَّر، أي: فعلتُم كفعلِ الَّذينَ من قبلِكم، فهو في موضعِ المفعولِ المطلَقِ الدَّالِّ على فعلِه[2]. والتَّعبير بكاف التَّشبيه إيماءٌ بوجود صفاتٍ مشتركة بين المُشبَّه، والمُشبَّه به بأسلوب جليٍّ موجز، وهو في الآية مبعثُ ذمٍّ.

سرُّ التَّعبير بحرف (الكاف):

بيان أنّ الشَّبه بين الطَّرفين، في بعض الوجوه لا كلّها

آثرَ التَّعبير بالكاف في قوله تعالى: ﴿كَٱلَّذِينَ﴾ دون (مِثْل)؛ لوجود فَرْق بينهما؛ فالمثليَّة تعني الاتفاق في الذَّات والصِّفة، وهذا غير مُراد في هذا السِّياق لعدم تحقُّق ذلك، أمَّا الكاف فتعني التَّشبيه بين الطَّرفين في بعض الوجوه، ولا يلزم في الوجوه كلِّها؛ لذلك كان التَّعبير بالكاف هو المناسب في تشبيه حال الكافرين والمنافقين بحال مَنْ سبَقهم من الأمم في الكُفر والنِّفاق والاستمتاع بالدُّنيا والإعراض عن الآخرة؛ لأنَّه الغرض المنشود من التَّشبيه وليس كل الوجوه الَّتي تعني المثليَّة.

بلاغة التَّشبيه التّمثيليّ، في مطلع الآية الكريمة:

إبراز حال المنافقين البئيسة، وعاقبة الكافرين التّعيسة

تظهر بلاغة التَّشبيه في مطلع الآية، بأنَّه تفسيرٌ لشُبَهِهم،

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 5/456، وأبو السُّعود، الإرشاد: 2/574، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/256.

(2) النَّحّاس، إعراب القرآن: 2/127، والزَّمخشريُّ، الكشَّاف: 2/201.

أي: للَّذين كانوا قبلَهم، وتمثيلٌ لفِعْلِهم بفعلِهم، فهو تشبيهٌ تمثيليٌّ يوضِّحُ حالَ هؤلاء بأنَّه كحالِ أولئكَ الَّذينَ من قبلِهم[1] في الاسْتمتاعِ والخَوْض، والغفلة.

نكتةُ حذفِ المُشبَّه، في سياق الآية الكريمة:

التَّشبيه بالحال دون الشُّخوص، موعظةٌ وتذكير بعدم الاغترار

لم تذكرِ الآية المُشبَّهَ وإنَّما جاءَ مُقدَّرًا بـ (أنتُم كالَّذين) أو (فعلتُم كفعلِ الَّذين)؛ لأنَّ المنافقينَ لَمَّا تقدَّمَ التَّصريحُ بهم أغنَى ذلك عن إعادةِ ذِكْرِهم، وهم أقلُّ شأنًا من التَّصريحِ بهم مرَّةً ثانية[2]؛ وأيضًا؛ لأنَّ القصدَ من هذا البيانِ هو التَّشبيهُ لتمثيلِ حالِهم بحالِ مَنْ كانَ قبلَهم تهديدًا لهم بالموعظة، وتذكيرًا لهم بأنْ لا يغتَرُّوا بالإمهالِ فيغفلوا عن حقيقةِ المآل.

سرّ التَّعبيرِ بالاسْمِ الموصول (الَّذين):

الاسْمُ الموصولُ أشملُ للأممِ المتقدِّمة، وأدْعَى للاعْتبارِ بهلاكِهم

الإتيانُ بالاسْمِ الموصولِ (الَّذين) في قوله تعالى: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾؛ لأنَّه أَشْملُ وأَجْمعُ للأُممِ الَّتي تقدَّمتْ مثلَ: عادٍ وثمود، ممَّن ضُرِبَ بهمُ المثلُ في القوَّة، فلْينظروا نَظَرَ اعْتبارٍ إلى مآلِهم، فإنِ اسْتمرَّ هؤلاء على ما هم عليه من الكفرِ والنِّفاقِ فسيكونُ مآلُهم كمآلِ مَنْ سَبقَهم[3].

معنَى ﴿مِن﴾ في قولِه: ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾:

ينطبق على المنافقين، حالُ مَنْ سبقهم بالاستمتاع

﴿مِن﴾ في قولِه تعالى: ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ بيانيَّةٌ تفسيريَّة، أي: أنتم مِثْلُ الَّذين من قَبلِكم[4]، ومن جنسهم، ويجوز أن تكون ابتدائيَّة، ويكون المُراد: أنتم كالَّذين سبقوكم بالكفر والطُّغيان من بني إسرائيل وإن لم يَجرِ لهم ذِكْر، لكن ينطبق عليهم الاستمتاع بالمال والولد والكفر والنِّفاق، وممّا يؤكّد ذلك أنَّ القَبْلِيَّة في قوله تعالى:

(1) الفرَّاء، معاني القرآن: 1/446، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 5/456.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/257.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/257.
(4) الزَّمخشريُّ، الكشَّاف: 2/201، وأبو السُّعود، الإرشاد: 2/574.

﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ يجوز إطلاقها على الزَّمان والمكان؛ فمن ناحية الزَّمان تَصْدُق عليهم، ومن ناحية المكان تَصْدُق عليهم.

دلالةُ اعتراضيَّةِ جملةِ، اعتبارهم أشدّ منهم قوّة:

المخاطَبون أولى وأحقُّ، بأنْ يُصيبهم ما أصابهم

جملةُ: ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً﴾ اعْتراضيَّةٌ، بين قوله تعالى: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ وهي تفسيرٌ للتَّشبيه؛ لأنَّ قوله تعالى: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ تشبيهٌ مُبهَم، لم يُعلم فيم شُبِّهوا بمن قبلهم فبيَّن بقوله تعالى: ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً﴾ الآية، ووجهُ الشَّبَهِ هو القوَّة والمال، ولبيان وجه الشَّبَه بين المخاطَبين ومَنْ قَبلهم فلا محلَّ لها من الإعراب، وفيه إيذانٌ بأنَّ المخاطَبين أوْلى وأحقُّ بأنْ يُصيبَهم ما أصابَهم[1].

دلالة التَّعبير بالفعل ﴿كَانُوٓاْ﴾، على المُكْنة الحضاريّة:

صيغة الماضي إشارة إلى قوّة العمران عبر الزّمان

دلّ التَّعبير بالفعل ﴿كَانُوٓاْ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً﴾، على شِدَّة تَمَكُّن الأمم السَّابقة في هذا الوصف، وأنَّه متأصِّلٌ فيهم؛ فهم أشدُّ قوَّةً وأكثرُ أموالًا وأولادًا منكم، يؤكِّد هذا قول الله تعالى عن قوم عاد: ﴿وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: 15]، ووصفهم بقوله: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الشعراء: 128 - 129]، ومن ذلك كلام القرآن عن فرعون ومَلَئِه بكثرة أموالهم وأولادهم، وآيات القرآن في هذا واضحة.

سرُّ التَّعبير بـ: ﴿أَشَدَّ﴾:

يتضمَّن لفظ (أشدَّ) معنى المبالغة في القوَّة، في الجوهر والهيئة

عبَّر بقوله تعالى: ﴿أَشَدَّ مِنكُمْ﴾ للدَّلالة على بيان فَرْط قوَّتهم، وللإشارة إلى أنَّه لا يقصد وصف الشِّدَّة بذاتها، بل وصف القوَّة؛ فكأنَّ المعنى: الأمم الَّتي قبلكم قوّتها أشدُّ، واختار ﴿أَشَدَّ﴾ لِتَضَمُّنِها معنى المبالغة في القوَّة في الجوهر والهيئة؛ ولأنَّ الشِّدَّة ليست من

(1) الطِّيبيُّ، فتوح الغيب: 7/300، والآلوسيُّ، روح المعاني: 10/34.

قبيل القدرة، ولهذا لا يُقال: (اللّه شديد)، أمَّا القوَّة فهي من قبيل القدرة، قال تعالى: ﴿أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً﴾، وقال تعالى: ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: 58][1].

نكتةُ تقديمِ شبهِ الجملة ﴿مِنكُمْ﴾:

اختصاصُ المخاطَبينَ بالتَّشبيهِ والتَّنبيه، مزيد من البيان والتّوضيح

قُدِّمَ شبهُ الجملةِ ﴿مِنكُمْ﴾، في قولِه تعالى: ﴿أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً﴾؛ لأنَّ المنافقينَ المخاطَبينَ همُ المَعنيُّون بهذا التَّشبيهِ، فقُدِّموا بقولِه: ﴿مِنكُمْ﴾ لاختصاصِ السِّياقِ بهم، وللتَّنبيهِ على أنَّهم أضعفُ قوَّةً، أو أقلُّ بأسًا، ممَّن كانَ حالُهم كحالِهم، ومع ذلكَ ما أَغْنَى عن أولئكَ قوَّتُهم شيئًا، لَمَّا كانوا مخالفينَ لأمرِ اللّه، مغرورينَ بإمهالِ اللّهِ لهم.

دلالة التَّنكيرُ للألفاظ: ﴿قُوَّةً﴾ و﴿أَمْوَٰلًا﴾ و﴿وَأَوْلَٰدًا﴾:

أسباب القوّة بلا إيمان، نكال ووبال وهوان

هذه الألفاظ جاءت منصوبةً على التَّمييز؛ فقولُه: ﴿قُوَّةً﴾ تمييزٌ بـ ﴿أَشَدَّ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً﴾، وقولُه: ﴿أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾ تمييزٌ عُطف على ﴿أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً﴾[2].ودلَّ التَّنكيرُ فيهم على شدَّة القوَّة وتَنَوُّعِها وكثرة المال والولد وهما من أسباب القوَّة.

سرُّ إيثار: ﴿وَأَكْثَرَ﴾ مع الأموال والأولاد:

لفظ (الأكثر) مناسبٌ للمال والولد، باعتبار العدد

اختار القرآن الكريم التَّعبيرَ بلفظ ﴿وَأَكْثَرَ﴾ مع الأموال والأولاد، دون غيره؛ لأنَّ الكثرة تكون فيما له عدد، وهو المناسب هنا لذِكْرِ المال والولد باعتبار العدد فيهما.

توجيه التَّعبير بـ ﴿وَأَكْثَرَ﴾، على زِنَة أَفْعَل التَّفضيل:

بيان كثرة أموال المنافقين والكَفَرَة، سابقًا ولاحقًا

عبّر القرآن الكريم بلفظ ﴿وَأَكْثَرَ﴾ بصيغة أفعل التّفضيل دون (كثير)؛ للدّلالة على إثبات الأموال والأولاد للسّابق واللّاحق من الكَفَرة والمنافقين؛ لكنهما مع السّابقين أكثر، وهذا دليلٌ على صدق القرآن الكريم في عرض تاريخ الأمم ردًّا على مقولة المشركين

(1) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 22.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/257، ودرويش، إعراب القرآن: 4/129.

المعاصرين لرسول الله ﷺ عندما قالوا: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [سبأ: 35].

نكتةُ ورود (الأموالِ والأولادِ) بصيغة الجمع:

الإشارة إلى كثرة الأموالِ والأولادِ، لتلوّن أسبابِها، وتنوّع مواردها

جُمعتِ (الأموالُ) و(الأولادُ) في قوله تعالى: ﴿وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا﴾؛ لكَثرةِ مواردِها وأسبابِها، فكثرةُ الأموالِ من أسبابِها طيبُ الأرضِ للزَّرعِ والغَرْسِ ورَعْيِ الأنعام، وَوَفْرةُ التِّجارة، واشتمالُ الأرضِ على المعادنِ من الذَّهبِ والفِضَّةِ والحديد، والموادِّ الصِّناعيَّةِ والغذائيَّةِ من النَّباتِ بأنواعِه الكثيرة.

وكثرةُ الأولادِ تأتي أيضًا من الأمْنِ بسببِ بقاءِ الأنفُس، ومن الخِصْبِ المؤثِّرِ، وقوَّةِ الأبدانِ والسَّلامةِ من المجاعات، والأَوْبئةِ المُهلِكة[1].

وفيه إشارة إلى اجتماع زينة الحياة الدُّنيا لهم، قال تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: 46].

سرّ تقديم (الأموال) على (الأولاد):

الأمـــوال هي الأســـاس في تحقيقِ ملـذّاتِ الدُّنيا وشهواتها

لَمّا شبَّهَ تعالى المنافقينَ في عُدولِهم عن طاعةِ اللهِ تعالى لأجلِ طلبِ لذّاتِ الدُّنيا بمَن قبلَهم، وصفَهم بحيازتِهم ما يُحقِّقُ لهم تلكَ اللَّذاتِ، وأوَّلُ ما يحقِّقُها هو كَثْرةُ الأموال، وهي الَّتي تكونُ سببًا للزَّواج ثمَّ الإتيانِ به بالأولاد، ولذلك جاءَ التَّرتيبُ بتقديم (الأموالِ) على (الأولادِ) مراعاةً لهذه الأَوْلَويَّةِ في واقعِ الحال[2].

سرُّ التّعبير بلفظ (الأولاد)، دون لفظ (الأبناء):

خصوص دلالة لفظ (الولد)، على مظنّة رفاهية عيشهم وهنائه

آثرَ التَّعبيرَ بـ(الأولاد) دون (الأبناءِ) في قوله تعالى: ﴿وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا﴾؛ لوجود فرق بينهما؛ فالابن أعمُّ من الولد؛ لأنَّه يُطلَق على كلِّ ما ترتَّبَ على غيرِه بالسَّببيَّة أو التبعيَّة أو الملازمة

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/257.
(2) الفخر الرّازيُّ، مفاتيح الغيب: 16/98.

أو المشابهة، و(الابن) يُفيد الاختصاصَ ومداومةَ الصُّحبة، ولهذا يُقال: (ابن الفَلاة) لمَن يُداوم سلوكها، و(ابن اللَّيل) لمَنْ يُكثر السَّير فيه، وقولنا: "هو ابن فلان" يقتضي أنَّه منسوبٌ إليه، ولهذا يُقال: "النَّاس بنو آدم"؛ لأنَّهم منسوبون إليه، وكذلك بنو إسرائيل، أمَّا (الولد) فيُطلَق على كلِّ ما وُلِدَ: ذكرًا أو أنثى، والولد يقتضي الولادة ويقتضي والدًا، وهذه المعاني لا تتأتَّى في الابن[1].

وبناءً على هذا فاختيار التَّعبير بالأولاد دون الأبناء؛ دلالةٌ على كثرة النّسل عن طريق الزّواج، وفي هذا إشارة إلى رفاهية الحياة الَّتي كانوا يعيشون فيها وقوَّة أبدانهم.

فائدةُ حذفِ شِبْه الجملةِ ﴿مِنكُمْ﴾، مع الأموالِ والأولاد:

اكْتُفِيَ بذِكْر ﴿مِنكُمْ﴾ من قبل، لأنّه معلوم من السّياق

حُذِفَ شبهُ الجملةِ ﴿مِنكُمْ﴾ مع الأموالِ والأولادِ، اكْتفاءً بذِكْرِه من قبلُ في قولِه تعالى: ﴿أَشَدَّ مِنكُمْ﴾، فهو معلوم من السّياق، وأيضًا لاندراجِ الأموال والأولاد في القوَّة الّتي سبق ذكرُها.

سرُّ ذِكْرِ (الأموال والأولاد) بعد ذِكْر (القوَّة) في السّياق:

الأموال والأولاد، من مظاهر القوّة والعزوة، في الحياة الدّنيا

ذكرت الآية القرآنيّة كثرة أموالهم وأولادهم مع سبْق ذِكر شدَّة قوَّتهم في قوله تعالى: ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً﴾؛ من باب عطف الخاصِّ على العامِّ؛ فالأموال والأولاد جزءٌ من القوَّة؛ لأنَّها تكون بالقوَّة البدنيَّة والقوَّة المعنويَّة.

نكتة استخدام (الفاءِ) التّفريعيّة، في قوله: ﴿فَٱسْتَمْتَعُواْ﴾:

لا يمنع التّفريع بالفاء، أن يكون المقصدُ هو التّشبيه

آثرَ التّعبير بالفاء دون غيرها، في قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ﴾؛ لأنّها دلّت على تفرُّعِ قولِه تعالى: ﴿فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ﴾ على ما أفادَه حرفُ (الكاف) بقولِه: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ من معنَى التَّشبيه، ولذلكَ لم تُعطَفْ جملةُ ﴿فَٱسْتَمْتَعْتُم﴾ بواوِ العطف؛

(1) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 315.

لأنَّها لا تؤدِّي هذا المعنى، فإنَّ هذه الجملةَ هي المقصدُ من التَّشبيهِ وما تفرَّعَ عليه[1]. ويجوز أن تدلَّ على ترتيب ما بعدها على ما قبلها تَرَتُّبَ محاكاةٍ واتِّباعٍ؛ فطلبتم ما طلبوا وحاكيتموهم فيما فعلوا، ولذلك قال بعدها: ﴿كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ﴾[2].

دلالة التَّعبير بلفظ: ﴿فَٱسْتَمْتَعُواْ﴾:

المبالغة في التّمتّع، وإدامة مظاهره، ملمح للبيان والتّذكير

جاء التّعبير بقولِه تعالى: ﴿فَٱسْتَمْتَعُواْ﴾ الَّتي جاءت على صيغة الاستفعال دون (تمتَّعوا) للمبالغةِ في قوَّةِ تمتُّعِهم، وأنّ حصولَ التَّمتُّعِ من جهتِهم لجميعِ لذائذِ الدُّنيا دونَ اكْتراثٍ منهم لما أُحِلَّ أو حُرِّمَ من تلكَ اللَّذائذ، ففي صيغةِ (الاسْتفعال) ما ليس في صيغةِ (التَّفعُّل) من الاسْتزادةِ والاسْتدامةِ في التَّمتُّع[3]، فهم مستزيدون من تلكَ المُتَع دائبون عليها.

دلالة الطّلب بالفعل (استمتع)، في السّياق:

الإشارة إلى السّعي إلى التّمتّع بالملذّات بأنفسهم

وفي دلالة الطَّلب الّتي هي مِن أهمِّ معاني صيغة الزِّيادة هذه بـ (الألف، والسِّين، والتَّاء)، ما يدلّ على أنّهم طلبوا التَّمتُّع، وسَعَوْا إليه، وبالغوا في تحصيل موارده، وأسبابه، طلبًا للدُّنيا وهروبًا مِنْ تكاليفِ الدّينِ.

دلالة (الباء)، في: ﴿بِخَلَٰقِهِمْ﴾:

التّمسّك بملذّات الدّنيا، يفضي إلى الإعراض عن الآخرة

الباءُ في ﴿بِخَلَٰقِهِمْ﴾ تدلّ على الإلصاق؛ لأنّ ما يستمتعون به ملاصقٌ لهم لا ينفكُّ عنهم، والمعنى: فاستمتعتُم بنصيبِكم من ملذّاتِ الدُّنيا كما اسْتمتَعوا، للدَّلالةِ على حرصهم التّامِ وعدم انفكاكهم عن لذائذِ الدُّنيا وانْصرافِهم بها عن طلبِ الآخرةِ والعملِ لها، واسْتعلائهم بها على الرّسل دون توظيف لها في طاعة اللّه تعالى واتِّباع رسله في الإيمان بشرع اللّه.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/258.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3267.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/574، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/258.

نكتةُ إضافةِ (خَلاقِ) إلى الضَّميرِ (هم):

بيانُ حالةِ التَّشبيهِ، بمَنْ تقدَّمهم من الكُفّار

أُضيفتْ كلمةُ (خلاق) إلى الضّميرِ (هم) في قوله تعالى: ﴿بِخَلَٰقِهِمْ﴾ دون التّعبير بالظّاهر (الكفّار)؛ لأنَّ المقصودَ إدخالُ (الخَلاقِ) في الحالةِ المشبَّهِ بها وهم القومُ الَّذين سبقوهم بالكُفرِ والاسْتمتاعِ بنصيبِهمُ الَّذي قدَّرَه اللّهُ لهم من مُتَعِ الحياةِ الدُّنيا دون الالتفاتِ لأوامرِ اللّهِ، وطلب الآخرة[1]. وفي إضافةِ (خَلاقِ) إلى الضَّمير (هم) أيضا، ذمُّ الأوَّلينَ باسْتمتاعِهم بحظوظِهمُ الخَسيسةِ من الشَّهواتِ الفانيةِ والتهائِهم بها عنِ النَّظرِ في العواقبِ الحَقَّةِ واللَّذائذِ الحقيقيَّة، تمهيدًا لذمِّ المخاطَبين بمُشابهتِهم إيّاهم واقْتفائهم أَثَرَهم[2].

نكتةُ إضافةِ (خلاقِ)، إلى ضميرِ المخاطَبين ﴿بِخَلَٰقِكُمْ﴾:

ذمُّ اتّباعِهم سَنَنَ مَنْ قبلَهم، في المادّة لا في القيم

دلّت الإضافة إلى ضميرِ المخاطَبينَ، في قولِه: ﴿بِخَلَٰقِكُمْ﴾، على ذمّ المُخاطَبينَ بمُشابهتِهم إيّاهم، واقْتفائِهم أَثَرَهم[3]، واتِّباعِهم سَنَنَ مَنْ قبلَهم، في طلبِ الدُّنيا والإعراضِ عن الآخرة.

نكتةُ الإطْنابِ، في تكرارِ لفظ الاسْتمتاعِ:

ذمُّ الأوَّلينَ بانْغماسِهم في مَلاذِّهم، ومَنْ تَبِعوهم ورَضوا بفِعلِهم

في تكرارِ الاسْتمتاعِ مع الأوَّلينَ مرَّتَيْن ومعهم مرَّةً واحدةً في قولِه تعالى: ﴿فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ﴾ فائدةٌ جليلةٌ وحكمةٌ مفيدة، وهي أنَّ اللّهَ أرادَ أنْ يُبالغ ذمَّ الأوَّلينَ بالاسْتمتاعِ بما أُوتوا من حُظوظِ الدُّنيا ورِضاهم بها، والتهائِهم بشهواتِهمُ الفانيةِ عنِ النَّظرِ في العاقبةِ وطلبِ الفلاحِ في الآخرة، وأنْ يُخِسَّ أمرَ الاسْتمتاعِ ويُهجِّنَ أمرَ التَّراضي به، ثمَّ يُشبِّهَ بعدَ ذلكَ حالَ المخاطَبينَ بحالِهم، كما تريدُ أنْ تُنبِّه بعضَ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/258.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/574.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/574.

الظَّلَمةِ على سَماجةِ فعلِه فتقول: أنت مِثْلُ فرعونَ، كان يقتلُ بغيرِ جُرْمٍ ويُعذِّبُ ويَعسِفُ وأنت تفعلُ مِثْلَ فِعْلِه[1]. " ففي التّكرير تأكيدٌ ومبالَغةٌ في ذمّ المخاطبين، وتقبيحِ حالِهم واستهجانِ أمرِهم"[2].

دلالة تَكرار التَّشبيهِ، في سياق الآية الكريمة:

نـبّـهَ عـلى جـزء مـخـصـوص من التّشبيه، تقعُ فـيـه الـمـوعـظـةُ والتَّذكير

تكرَّرتِ الكاف في قوله تعالى: ﴿كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ﴾ تأكيدًا للتَّشبيهِ الواقعِ في قولِه تعالى: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ إلى قولِه تعالى: ﴿فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ ذلكَ الجزءَ بخصوصِه من بين الحالةِ المشبَّهةِ والحالةِ المشبَّهِ بها، هو محلُّ الموعظةِ والتَّذكير، فلا يُغْرِهم ما هم فيه من نعمةِ الإمهالِ والاسْتدراج، فقدَّم قولَه: ﴿فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ﴾ وأتَى بقولِه: ﴿كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ﴾ مؤكِّدًا له دونَ أن يقتصرَ على هذا التَّشبيهِ الأخير؛ ليتأتَّى التَّأكيدُ، ولأنَّ تقديمَ ما يُتمِّمُ تصويرَ الحالةِ المشبَّهِ بها المركَّبةِ قبلَ إيقاعِ التَّشبيه، أشدُّ تمْكِينًا لمعنَى المشابهةِ عند السّامع[3].

فائدةُ الإظهارِ في موضعِ الإضمارِ، في السّياق:

قـلّـة الـنَّـظـر إلى الـنَّـفس مُستَلْزِمٌ لِقِلَّة العقل

أفاد التَّعبير بإظهارِ ما حقُّه الإضمارُ في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ﴾ فلم يقُلْ: (كما استمتعوا) فائدةً جليلةً، وهي التَّنبيهُ على ذمِّهم بقلَّةِ النَّظرِ لنَفْسِهم المُستلزِم لقلَّةِ عقولِهم؛ إذ كانوا دونَهم في القوَّةِ أبدانًا وأموالًا وأولادًا لم يكفّوا عنِ الاستمتاعِ والخَوْضِ خوفًا ممّا محقَ أولئكَ الأحزابَ على قوَّتِهم من العذابِ من غيرِ أن ينفعَهم سببٌ من الأسباب، وفي ذلكَ أيضًا دَلالةٌ على التَّحقيرِ لشأنِ المذكورين، كقولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾﴾ [مريم: 44][4].

---

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/201، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/456.

(2) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/387.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/258.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/457، والبقاعيُّ، نظم الدُّرر: 8/522 - 523، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/574.

نكتةُ إضافةِ الألف والسّين والتّاءِ، في الفعل ﴿ٱسۡتَمۡتَعَ﴾:

بيانُ شغف المتقدِّمين لِمُتَعِ الدُّنيا، ومُداومتِهم عليها، وانْغماسِهم فيها

قد مرّ ذِكرُ أنَّ إضافةَ الألف والسّين والتّاءِ، في قولِه تعالى: ﴿ٱسۡتَمۡتَعَ﴾ للمبالغةِ، ولبيانِ أنَّ المتقدِّمينَ طلبوا المتاعَ والانْتفاعَ في الدُّنيا بغاية الرَّغبةِ والاسْتزادةِ والاستدامةِ مُعرِضينَ عن العُقبَى[1].

فائدةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

المبالغةُ في ذمِّ حالِ المُتقدِّمين، وفي مشابهةِ المتأخِّرينَ لهم

عبَّر القرآن الكريم بالاسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾، في قولِه تعالى: ﴿كَمَا ٱسۡتَمۡتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُم بِخَلَٰقِهِمۡ﴾، للمبالغةِ في ذمِّ حالِهم، وسوءِ أفعالِهم، وإظهارِهم بمظهرِ مَن خَفَّتْ عقولُهم، مع ما أعطاهُمُ اللهُ من قوَّةِ الأجسادِ وكَثْرةِ الأموالِ والأولاد، وفيه إشارة إلى تشخيصهم وتعيينهم بهذه الحالة في الاستمتاع بملذَّات الدُّنيا، والإعراض عن الآخرة.

دلالة المبالغة لبيان المشابهة، في السّياق:

بيانُ وجهِ المشابهةِ مع السَّابقين، في سوءِ الحالِ والمآل

قوله تعالى: ﴿كَمَا ٱسۡتَمۡتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُم﴾، جاءَ وصفُهم بهذه المبالغةِ في الآية الكريمة؛ لبيانِ مشابهةِ هؤلاءِ المتَّبعينَ بأولئكَ المتَّبَعينَ في سوءِ الحالِ والمآل[2].

دلالة ﴿مِن﴾ في قولِه: ﴿مِن قَبۡلِكُمۡ﴾:

أزمنة المشبَّهين في السّياق، بعضٌ من الزّمان المنصرم

ذمَّ الأوَّلين والمخاطَبينَ لاشْتراكِهم في الانْغماسِ في مُتَعِ الدُّنيا. ولمَّا كان المُرادُ القرونَ الَّتي تَقدّم ذِكر إهلاكها، وكانت أزمنتهم بعض الزّمان الماضي، وليس كلّها أتى بالجارِّ فقال: ﴿مِن قَبۡلِكُمۡ﴾.

سرُّ التَّعبير بـ(الخَلاق):

إلفُ النّعمة، حجابٌ دون شكر المنعم

آثرَ القرآن الكريم التَّعبير بـ ﴿بِخَلَٰقِهِمۡ﴾ ثلاث مرّات في الآية، مع اختلاف المُخاطَب فيها دون التَّعبير بالنَّصيب؛ لأنَّهم كانوا حريصين على الاستمتاع بملذّات الدّنيا مُعرضين عن الآخرة؛ فلا يسعون لها

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/522، وأبو السُّعود، الإرشاد: 2/574.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/522.

ولا يطلبونها، وهذا دليلٌ على سوء أخلاقهم؛ لذلك ناسب التَّعبير بـ ﴿بِخَلَٰقِهِمْ﴾ للدّلالة على أنَّ ذلك نابع من أخلاقهم، وصار طبعًا لهم.

بلاغةُ العطفِ بالواو، في قولِه: ﴿وَخُضْتُمْ﴾:

قولُه تعالى: ﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ﴾ معطوفٌ على ما تقدَّمَه، وذلك لبيان مُبالغتِهم في الدُّخولِ في الباطلِ وخوضِهم في الكفرِ ومحادَّةِ اللّهِ ورسولِه ﷺ، فهم قد اسْتغرَقوا في الشَّهواتِ ولذائذِ الدُّنيا وزادوا عليها خوضَهم في الضَّلالِ والبُعدَ عنِ الهُدَى[1].

مبالغتهم في خوض الباطلِ، كمبالغتهم في اتِّباعِ الشَّهوات

بلاغةُ تشبيهِ الخوض في الباطل، من اللّاحقين بالسّابقين:

قوله تعالى: ﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ﴾، في الآية تشبيهٌ لخوضِ المنافقينَ بخوضِ أولئك، وهو الخوضُ الَّذي حُكيَ عنهم في قولِه: ﴿لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ [التَّوبة: 65] والمعنى: تشابهت أحوالكم مع أحوال مَنْ سبقوكم في الخوض في آيات اللّه والاستهزاء برسوله.

أحوال المنافقين المعاصرين، تشبه أحوال الغابرين، في الخوض المهين

بلاغة الإيجاز في التَّشبيه:

جاء التَّشبيه في قوله تعالى: ﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ﴾ موجزًا دون إطناب كما في قوله: ﴿فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ﴾؛ لبساطةِ هذا التَّشبيه؛ لذلك لم يُؤْتَ فيه بمثلِ الأسلوبِ الَّذي أُتيَ به في التَّشبيهِ السّابقِ له، بأنْ يُقال: وخُضتُم في الكُفرِ والاسْتهزاءِ بآياتِ اللّهِ ورسولِه كالخَوْضِ الَّذي خاضوه في ذلك، فأنتم وهُم سواء، فيوشِكُ أنْ يحيقَ بكم ما حاقَ بهم. وفيه إشارةٌ إلى سهولة التَّعبير ليفهمه التَّالي ويعقله السَّامع دون صعوبةٍ في معرفة المقصود منه[2].

سرعة الوصول إلى المُراد، من بيان السّياق القرآنيّ

بلاغةُ الاسْتعارةِ في لفظِ الخَوْض:

قولُه تعالى: ﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ﴾ مُستعارٌ من الخَوْضِ في الماء، ولا يُستعمَلُ إلَّا في الباطل؛ لأنَّ التَّصرُّفَ في الحقِّ إنَّما هو

الخوضُ في الباطلِ، مسلك مريب، مآله الصّراع والهلاك

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/574.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/259.

خوض، فَمَن يخوضُ في الماءِ قد يغرقُ ويهلك، وكذلكَ مَنْ يخوضُ في أمورِ الباطلِ ويَدَعُ أمورَ الحقِّ سَيهلِكُ لا مَحالة[1]، والخوضُ في الباطلِ مُستعارٌ من الخوضِ في الماء بجامعِ المآل وهو الهلاك.

نكتةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ المفردِ ﴿كَٱلَّذِى﴾:

عائدُ الصِّلةِ ضميرُ جمعٍ، فتأوَّلَ الَّذي بالجَمْع، في السّياق

جاءَ التَّعبيرُ بالاسمِ الموصولِ المفردِ، في قولِه تعالى: ﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ﴾، فلم يقُل: (وخُضْتُم كخوضِهم)، ذلكَ أنَّ عائدَ الصِّلةِ هنا ضميرُ جمعٍ تعيَّنَ أنْ يكونَ المرادُ بـ ﴿كَٱلَّذِى﴾ تأويله بالفريقِ أوِ الجَمْعِ، ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿كَٱلَّذِى﴾ هنا أَصْلُه (الَّذين) فخُفِّفَ بحذفِ النّونِ على لغةِ هُذَيْل وتَميمَ. ويمكنُ أنَّ (الَّذي) معَ ما بعدَها يُسْبَكُ منهما مصدَر، أي: كخوضِهم[2]. ويكون التّركيز على خوضهم، لا عليهم أنفسهم؛ فالأصل الأعمال لا الأشخاص.

بلاغةُ توالي التَّشبيهاتِ:

بيان سوء حال المنافقين، في اتّباعهم لمَنْ سبقهم من الكافرين

توالتِ التَّشبيهاتُ في الآيةِ الكريمة، وهذا التَّوالي يدُلُّ على أمرَيْنِ جديرَيْنِ بالانْتباه، أحدُهما: بيانُ سوءِ حالِ المنافقينَ في اتِّباعِهم لسَنَنِ مَنْ سَلَفَهم من الكافرينَ في الانْغماسِ في الشَّهواتِ والملذَّاتِ الدُّنيويَّةِ والخَوْضِ في الاسْتهزاءِ بآياتِ اللّهِ ورسولِه. والآخر: التَّنبيهُ على أنَّهم بسببِ ما ذَكَرَه اللّهُ من وصْفِ حالةِ المُشَبَّهِ بهم من الأُمم البائدةِ كانوا جديرينَ مع مَنْ شابَهَهم ممَّن أتى بعدَهم بإحْباطِ أعمالِهم وخُسرانِهم[3].

سرُّ التَّعبير بالفعل الماضي ﴿وَخُضْتُمْ﴾:

الخوض في آيات الله، ينطبع في العقل والنّفس، حتّى يصير طبعًا لهم

آثر القرآن الكريم التّعبير بالفعل الماضي ﴿وَخُضْتُمْ﴾، مع المخاطبين دون المضارع للدّلالة على تمكُّنهم في فعل الخوض في

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/457، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/523.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/457، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/259.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/259.

آيات اللّه والاستهزاء برُسُله، وثبوت ذلك الخوض لهم، وأنَّ ذلك صار من طبائعهم.

نكتةُ فصلِ قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾:

فُصل قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ بيانًا لعاقبةِ أمرِهم ونتيجةً لازمةً لمقدِّماتها السّابقةِ؛ لذا جاءَت هذه الجملة بيانًا لفسادِ أعمالِهم وبُطلانِها بزوالِها عنهم في الدُّنيا ونسيانِ لَذَّاتِها، وفي الآخرةِ سيُحاسبونَ عليها ويُعذَّبونَ بها[1].

بيانُ عاقبةِ الانغماس في الدُّنيا، والعزوف عن الآخرة

ولأنَّ هذه الجملة جاءت بذكر الجزاء المُعدِّ لهؤلاء المخاطبين، تُرِكَ العطفُ وفُصِلَت الجملة عمَّا قبلها.

فائدةُ التَّعبيرِ باسْمِ الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

صُدِّر قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ باسْمِ الإشارةِ للبعيد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ لتقريرِ وبيانِ أنَّ مَنْ تقدَّمتْ أوصافُهم من المُشَبَّهينَ والمُشبَّه بهم همُ البُعداءُ من الخير، والمُقْصَوْنَ عن رحمةِ اللّه[2].

تحقيرُ شأنِ الموصوفين، وتوبيخهم بما يستحقّون

دلالة التَّعبير بالمفرد، في ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

جاء التَّعبير القرآنيُّ مفردًا في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةً إلى المتَّصفين بالأوصاف المعدودة من المُشبَّهين والمُشَبَّه بهم، لا إلى الفريق الأخير فقط؛ فإنَّ ذلك يقتضي أن يكون حُبُوط أعمال المُشبَّهين وخُسرانهم مفهومينِ ضمنًا لا تصريحًا؛ لذلك كان التَّعبير بـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ دون (أولئكم)[3].

الجمعُ بين المُشبَّهين والمُشبَّه بهم

بلاغةُ الاستعارةِ في حَبْطِ الأعمال، في سياق المقال:

الحَبْطُ: الزَّوالُ والبُطلانُ وأصلُه من الحَبَطِ - بفتح الباء - وهو انْتفاخٌ في بُطونِ الإبلِ من كَثْرةِ الأكلِ، فتموتُ من ذلك، فإطلاقُهُ

تشبيهُ أصحاب الأعمالِ المستقبحة، بالأنعامِ الَّتي ماتت بأكلها النَّهِم

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 8/523.
(2) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 8/523، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/574.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/81.

على إبطالِ الأعمالِ تمثيل؛ لأنَّ الإبِلَ تأكلُ الخَضِرَ شَهوةً للشِّبَع فيؤولُ عليها بالموت، فشبَّهَ حالَ مَنْ عملَ الأعمالَ الصّالحةَ لنفعِها في الآخرة، فلم يجدْ لها أَثَرًا بالماشيةِ الَّتي أكلتْ حتَّى أصابَها الحَبَط، ولذلكَ لم تُقيَّدِ الأعمالُ بالصّالحاتِ لظهورِ ذلكَ التَّمثيل[1].

بلاغة الخطاب في صلاحيّته لتعدّد المراد:

تظهر بلاغة الخطاب في قولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾، في صلاحيّته لتعدُّد المُراد به؛ فيجوز أن يكون موجَّهًا إلى الرّسول ﷺ، ويكون الغرض منه تسليّته ﷺ على موقف هؤلاء من دعوته، ويجوز أن يكون لكلِّ مَنْ يَصلح له الخطاب، ويكون الغرض منه تحذيرهم من سلوك مَسلكهم، ويكون المعنى: أولئكَ الموصوفونَ بما ذُكِرَ من الأفعالِ الذَّميمة، وفي هذا كلِّه تذكِرةٌ للنَّبيِّ ﷺ والمؤمنينَ بأنْ لا يظنّوا أنَّ اللّهَ لَمّا أمهلَ المنافقينَ فقد أَعْرضَ عنهم[2].

الإشارةُ إلى كلا الفريقيْنِ، والتّعريضُ بكلِّ مَن يصلُحُ للخطاب

دلالة التَّعبير بالفعل الماضي ﴿حَبِطَتْ﴾:

دلّ التَّعبير بالفعل الماضي ﴿حَبِطَتْ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ على تحقُّق وقوع الحُبُوط. وفي ذلك زجرٌ للمعاندين من أهل الكُفر عمّا يتوهّمون في قبول أعمالهم الّتي كانوا يعملونها من عمارة المسجد الحرام وسُقيا الحجيج من غير إسلام؛ فجاء التّعبير بالماضي ليقطع هذا التوهّم عندهم. يؤكِّد هذا قوله تعالى في حقِّهم: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ الآية.

لا تقبل الأعمال من غير إسلام، مهما عظم شأنها في الأنام

دلالة إيثار التَّعبير: ﴿أَعْمَٰلُهُمْ﴾:

آثر التّعبير بالأعمال دون غيرها كالأفعال في قوله تعالى: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾؛ لوجود فَرْق بين الأفعال والأعمال من ناحية

خُلوُّ الأعمال من الإيمان، يفرغها من روحها، وبركة نفعها

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 2/332.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/574، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/260.

العموم والخصوص؛ إذ يتميّز العمل بالقصد وامتداد الأثر؛ لذلك كان المراد لأعمالهم الَّتي كانوا يستحقُّون بها أجورًا حسنة لو كانت مبنيَّة على الإيمان؛ لكنها لمَّا خلت من الإيمان ضاعت وبطلت بالكلِّيَّة ولم يترتّب عليها أثرٌ صالحٌ لهم في الدُّنيا والآخرة.

دلالة الإضافة في: ﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾:

خَـصَّ بطلان الأعـمـال بالكافرين، لأنّ الكفر محبط للعمل

دلّتِ الإضافة على خصوصية بطلان أعمالهم دون أعمال المؤمنين الّذين آمنوا باللّه ورسله، وفي هذا ذمٌّ للكافرين وبشارة للمؤمنين.

فائدةُ ذكرِ: ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾:

زوالُ آثـارِ الأعمالِ، يكونُ في الدُّنيا والآخرة

لمّا ذكرَ بيانُ اللّهِ تعالى حَبَطَ الأعمال، وهذا يعني زوالَ آثارِها المجهولةِ مُرتَّبةً عليها شرعًا، فشملَ بذلكَ آثارَها في الدُّنيا؛ لأنّ ما يترتّب على أعمالهم فيها من الصّحة والسّعة وغير ذلك حسبما يُنبئ عنه قوله ﷻ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ١٥﴾ [هود: 15] ليس ترتُّبه عليها على طريقة المثوبة والكرامة بل بطريق الاستدراج، وأمَّا في الآخرة فالأمر ظاهرٌ[1]؛ لذلكَ خُتِمَ حَبَطُ الأعمالِ بقولِه تعالى: ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾[2].

دلالة التَّعريف بـ (الْ)، في لفظي: ﴿ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾:

المُـراد باللّفظين (الدُّنيا والآخرةُ)، المعهودتان عند النّاس

الدُّنيا والآخرةُ كلاهما اسْما عَلَم: الأولى هي الدُّنيا المعهودةُ عند النّاس، وهي وعاءُ الأحداث والأزمانِ والأمكنةِ الحاضرةِ الموجودةِ على سطحِ الأرضِ الَّتي تضمُّ الأُمَمَ والبَشَر، سواءٌ أكانوا نُصراءَ أم أعداء.

والثّانية: الآخرةُ وهي الدّار الغائبةُ ولكنَّها المعهودةُ الَّتي تكونُ فيها نهايةُ البشرِ وخاتمتُهم وجزاؤهم وحسابُهم بما أخبرَنا به اللّهُ تعالى في كتابِه، والرَّسولُ ﷺ في سُنَّته، وكلاهما وحيٌ من اللّه.

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/81.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 2/332.

نكتةُ الطِّباقِ، في قولِه: ﴿ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾:

سرُّ التَّقابل اختلافُ آثارِ الأعمالِ في الدُّنيا، وثوابِها في الآخرة

جاءَ الطِّباق[1] في مُفرَدَتي: الدُّنيا والآخرة، لتقابلِهما في المعنى، واختلافِ كلٍّ منهما عن الأُخرى، والمرادُ هنا: اخْتلافُ آثارِ الأعمالِ في الدُّنيا وثوابِها في الآخرة، وهو سرُّ التَّقابل هنا في قولِه تعالى: ﴿ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ ففي الدُّنيا الأعمال، وفي الآخرةِ الحسابُ على تلكَ الأعمال، وأولئك المنافقون المتَّبِعونَ لسَنَنِ مَنْ قبلَهم أتعبوا أنفسَهم بأعمالٍ مخالفةٍ لشرعِ اللّه، فحبِطتْ وضاعت، وخسِروا ثوابَها في الآخرة[2].

فائدةُ العطْفِ في جملة الإشارة، للوصف بالخسارة:

بيانُ ما ترتَّبَ على المُقدِّماتِ السَّيِّئة، من نتائجَ أسوأ

قولُه تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ عطفٌ على جملةِ الجزاءِ الأوَّل، وهو قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ إذِ الأمورُ بخواتِمها، فقد ترتَّبَ على ما تقدَّمَ على الاسْتمتاعِ بشهواتِ الدُّنيا بلا حساب، والخوضِ في النِّفاقِ والكفرِ والاسْتهزاءِ بآياتِ اللّهِ ورسولِه ﷺ أمران: حَبَطُ الأعمال، والخُسْران[3].

فائدةُ إعادةِ ذِكْرِ اسْمِ الإشارةِ للبعيد:

سببُ خُسرانهم، هو سوءُ أعمالهم، وتلك نتيجة حتميّة

أعادَ القرآن الكريم اسْمَ الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ للاهْتمامِ بتمييزِ المُتحدَّثِ عنهم لزيادةِ تقريرِ أحوالِهم في ذِهْنِ السّامع، وجاءتِ الإشارةُ للبعيدِ لبيانِ أنَّهم بُعداءُ من الخَيْرِ بسَبب ما تقدَّمَ من حالِ انْغماسِهم في لذائذِ الدُّنيا، وتركِهم لطلبِ الآخرة، وخَوْضِهم مع الخائضينَ في الكُفْرِ والاسْتهزاءِ بآياتِ اللّه[4]، وأنَّهم أحْرياءُ بالعقوبة الّتي ذكرها القرآن لهم.

---

(1) الطِّباق: هو الجمعُ بين لفظَين مُتقابلَيْن في المعنى، وهو نوعان: حقيقيٌّ واعْتباريٌّ، ولكلٍّ منهما أنواعٌ تدخل تحته، ويكون الطِّباق بين: اسْمَيْن: كالدُّنيا والآخرة، والأوَّل والآخر، والظّاهر والباطن. وبين فعلَيْن: كأضحكَ وأبْكى. وبين حرفين: كـ(لهُنَّ) و(عليهن)، و(لها) و(عليها)، يُنظر: ابن الأثير، المثل السّائر في أدب الكاتب والشّاعر: 1/251، والخطيب القَزوينيّ، الإيضاح في علوم البلاغة: 1/110.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 2/332.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 2/333.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/260.

تكرار إيرادِ اسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، في الموضِعَيْن:

تقبيح أفعال المنافقين والكافرين، في كلّ الأزمنة

تكرَّرَ اسْمُ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ وقولِه تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ للإشعارِ بعِلِّيَّةِ الأوصافِ المُشارِ إليها للحُبوطِ في أعمالِهم وخُسرانِهم[1]. وأيضًا للاهتمام بتمييز المتحدَّث عنهم لزيادة تقرير أحوالهم في ذهنِ السَّامع.

سِرُّ التَّعبير بالاسميَّةِ، دون الفعليَّة، في السّياق:

ثباتُ وصفِ حالةِ خُسرانِهم، ومُلازمتِها لهم

خُتمتِ الآيةُ الكريمةُ بالجملةِ الاسميَّة ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ دون الفعليَّة (خسروا)، للدَّلالةِ على ثباتِ هذا الوصفِ في حقِّهم، وأنَّ حالَتَهم في تلكَ الخسارةِ حالةٌ لازمةٌ لهم لا تنفكُّ عنهم، وللتَّعبير عن عموم الخسارة وشيوعها فيهم وعدم تقييدها بزمن.

بلاغةُ القَصْرِ بضميرِ الفصل ﴿هُمُ﴾، وتعريف طرفي الإسناد:

المبالغةُ في وصفِهم بالخسارة في الدَّارين، مفصحة عن المقصد

في قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾؛ لمّا كانتْ خسارتُهم جَسيمةً جُعِلَ غيرُهم من الخاسرينَ كَلا خاسرين، فَحُصِرَتِ الخسارةُ في هؤلاءِ دونَ غيرِهم بضميرِ الفَصْلِ ﴿هُمُ﴾ وتعريفِ طَرفي الجُملةِ: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ و﴿ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ قَصْرًا مقصودًا به المبالغةُ في وصفِهم بالخسارة[2].

سِرُّ التَّعبير بالخُسران في الفاصلة:

سُوء أفعالهم عصف بأعمالهم، فضرّهم ولم ينفعهم

آثر القرآنُ التَّعبير بالخُسران دون غيره، في قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾؛ لأنَّه يأتي بمعنى النَّقص والضَّلال، وهو ما يتوافق مع سياق الآيات في فعل المنافقين والكافرين من الأفعال المذمومة والصِّفات السَّيئة الَّتي ذهبت برؤوسِ أموالهم الَّتي هي أعمالهم فيما ضرَّهم ولم ينفعهم قطّ، ولو أنَّها ذهبت فيما لا

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/576.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/260.

يضرُّهم ولا ينفعهم لكفى به خسرانًا؛ فكيف إذا كان فيما يضرُّهم ولا ينفعهم، فذلك هو الخسران المبين.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الاسْتمتاعُ والانْتفاعُ:

الاسْتمتاعُ: الانْتفاعُ بما قدَّرَه اللهُ من مُتعِ الدُّنيا ولذائذِها، وذلك إنَّما يكون بوجود اللَّذة أو بما يكون معه، نحو المال الجليل والمُلك النَّفيس. والمتاعُ أيضًا: انْتفاعٌ ممتدُّ الوقت، يُقالُ: متَّعهُ اللهُ بكذا، وأَمْتعَهُ، وتمتَّعَ به، قالَ تعالى: ﴿فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ﴾ [التَّوبة: 69] أي: تمتَّعوا بنصيبِهم من لذائذِ الدُّنيا[1].

الاسْتمتاعُ الانْتفاعُ بمُتعِ الدُّنيا ولذائذِها، والانْتفاع ما يُسْتَعانُ به في الوصولِ إلى الخير العميم

والنَّفعُ هو: ما يُسْتَعانُ به في الوصولِ إلى الخيرات، وما يُتوصَّلُ به إلى الخيرِ فهو خير، فالنَّفعُ خيرٌ، وضدُّه الضُّرّ، قالَ تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [الأعراف: 188][2]. وقد يكون النَّفع بما تتأجَّل به اللَّذة نحو إصلاح الطَّعام وتبريد الماء لوقت الحاجة إلى ذلك[3]. ولمّا كان الاستمتاع قرينَ الانتفاع بمتاع الدّنيا المقدّر من الله تعالى أُختيرَ في الآية لمناسبته ما رُزقوا من أموال وأولاد، وغير ذلك ممّا يُنتفع به.

الخَلاقُ والنَّصيبُ:

فالخلاقُ الحظّ اللّائق بالخُلُق، والنَّصيبُ الحظُّ المُعيَّن، وهو أعمّ وأشمل

الخلاق: النَّصيبُ الوافرُ من الخيرِ خاصَّة، أو هو النصيب من العمل الصَّالح؛ لذا كثر استعماله في الجزاء بالجنَّة في الآخرة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ [البقرة: 200] إلى غير ذلك من الآيات، واستعماله في الخير؛ لأنَّه مشتقٌّ ممّا اكتسبه الإنسان من الفضيلة بخُلُقه؛ فالخلاقُ: الحظّ اللّائق بالخُلُق، وخلاقُ

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 757، وابن منظور، اللّسان: (متع).
(2) الرّاغب، المفردات، ص: 819، وابن منظور، اللّسان: (نفع).
(3) العسكريّ، الفروق اللُّغوية، ص: 222.

المرء: الشَّيء الّذي هو به خَليق، وقد يُستعمل في مَنْ ترك نصيبه من الآخرة واستمتع بخلاق الدُّنيا كما في هذه الآية: ﴿فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ﴾ الآية، وهذا ما اسْتمتعَ به المنافقون بما يُسخِطُ الله.

والنَّصيبُ: الحظُّ المنصوب، أي: المُعَيَّن، ويكونُ في المحبوبِ والمكروه، يُقالُ: وفّاهُ اللّهُ نصيبَه من النَّعيم أو مِنَ العذاب، والنَّصيبُ: ما نُصِبَ له لينالَه سواءٌ أكانَ محبوبًا أم مكروها. والنَّصيبُ: ما يُصيبُ الإنسانَ من مُقاسَمة، سواءٌ ارْتفعَ به شأنُه أمْ لا.

واستُعمل (النَّصيب) في القرآن في آيات المواريث، وعلى هذا فالنَّصيب أعمُّ من الخلاق؛ لأنَّه يأتي في الجزاء بالأجر والثَّواب في قوله تعالى: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾ [النساء: 85] وفي الجزاء بالعذاب، قال تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾﴾ [غافر: 47]، وعلى هذا فالنَّصيب يكون في المحبوب والمكروه[1].

ويهدي هذا الاستقراء إلى أنَّ الخلاق إذا فُسِّرَ بالنَّصيب بمعنى القَدْر، فملحوظٌ فيه خصوص دلالته على جزاء ما يكسب الإنسان بخُلُقِه ومسعاه. ويكون النَّصيب بدلالة أعمَّ، فيأتي بمعنى القَدْر من كسب الخُلُق والعمل، ويأتي كذلك بمعنى القَدْر المفروض، والحظِّ المقسوم[2]. ولخصوص دلالة الخلاق على جزاء ما يكسب بمسعاه اصطُفي في الآية ليُناسب لفظ الاستمتاع الدّالّ على طلب التّمتّع والسَّعي إليه.

البُطلانُ، والحُبُوطُ:

يُقالُ: أَحْبَطَ اللّهُ عملَ الكافر، أي: أَبْطَلَه، قالَ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ [التَّوبة: 69] أي: بَطَلتْ أعمالُهم بعدَ التَّعَبِ فيها[3].

الحبوط أَصْلٌ يدلُّ على البُطلان، الّذي هو فسادٌ يُظنّ به صلاح الأمر

(1) الدّوريّ، دقائق الفروق اللُّغوية في البيان القرآنيّ، ص: 146.
(2) عائشة عبد الرَّحمن، الإعجاز البيانيُّ للقرآن ومسائل ابن الأزرق، ص: 404.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: 2/129، والرّاغب، المفردات، ص: 216.

وعلى هذا فالحُبُوط يدور على أمرين: بطلان العمل وسبب ذلك أنَّه بُنيَ على غير أساس صحيح ولا أصلٍ ثابت، والثَّاني: فساده بعد الوقوع والصِّحَّة، ومنشأ الحبوط هنا، فسادٌ في الشّيء الصَّالح يأتي عليه من وجهٍ يُظنُّ به صلاحُه.

أمَّا البُطلان: فهو عامٌّ في العملِ وفي غيرِه، في الاعْتقادِ والقضاء، قالَ تعالى: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ [آل عمران: 191]. وذلك لأنَّ الباطلَ: نقيضُ الحقِّ، وهو ما لا ثَباتَ له عندَ الفحص عنه، قالَ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحجّ: 62][1].

ولأنَّ الاستمتاع بملذَّات الحياة أموالًا، وأولادًا، وزينةً لا أصلَ ثابتًا له مع كونها من حاجات الحياة الأساس من حيثُ لم تُستثمر في سبيل مرضاة اللّه تعالى، ونُصرة دينه. كان لفظ البُطلان أنسب من غيره في التَّعبير عن هذا المعنى بوصفه فسادًا في الشّيء الصَّالح يأتي عليه من وجهٍ يُظنّ به صلاحه.

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 129، وابن منظور، لسان العرب: (بطل).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع عشر، سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع عشر، سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 17 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-14-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 17 : المجلد السابع عشر، سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-14-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4716310 بتاريخ 2024/01/24م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»